

ترجمة : أحمد عزيز بيك انوق

إعداد :

تمارا شوج

برت شواقار سگاس



www.Kavkaznews.net

أجداد الأديغة الميوت – الزيخ

الفترة من بداية الألفية الأولى قبل الميلاد حتى القرن الثالث
الميلادي



أولاً : الميوت

في الألفية الأولى قبل الميلاد, كانت كل الشعوب التي تسكن شواطئ الميوتيد (بحر أزوف) و القفاس الشمالي والسهول الشمالية المتاخمة لها متقاربة.

هذه الشعوب هي: (سيند – زيخ – بسيس – داندار – دوسخ – توريات – ابدياكين – ارياخ – آخي – موسخ – سيتاكين – تاربيت –فاتييه), وكانت حسب المدونات التاريخية الإغريقية و مدونات روما القديمة تجمع تحت اسم الميوت .

كان الميوت صناع مهرة, بينهم الحدادين والحجارين والخزفيين و الحذائين و عمال ميناء وصائغين. وكان ممثلو كل حرفة يشكلون طبقة عشائرية, ولم يكن مسموحا لأي شخص أن يتعدى على مهنة أخرى.

كان للميوت نظام العبادة و الإيمان الخاص بهم, كانوا يؤلهون قوى الطبيعة والظواهر الطبيعية كإله نور الشمس والنار وإله المطر والعواصف الرعدية وإله الغابة وإله البحر وغيرها من الآلهة. وكانوا يقدمون القرابين لها مترافقة بطقوس صعبة. فقد انتشرت عندهم طقوس سحرية مختلفة مارسها زعماء القبائل . تمثلت طقوسهم باستخدام ألفاظ وتعويذات خاصة وتحضير العقاقير السحرية.

رئيس القبيلة كان الأكثر حنكة في أمور ومدارك السحر, ينغمس فيها لدرجة أنه يرى أحداث الماضي والحاضر والمستقبل, ويخاطب أرواح المتوفين من أقاربه, ويخاطب كذلك الآلهة ويسألهم المعونة والنصح في بعض الأمور حسب معتقدات الميوت. كل ذلك يترافق بصيام واعتزال أو بالعكس يترافق مع تناول الكثير من الطعام والمشروبات المسكرة.

أما مدافن عظماء الميوت فتتميز بتعقيدات كبيرة وتخضع لتصنيف حجمي.

تتجسد آلهة الميوت بالظواهر الطبيعية والعفوية: آلهة السماء, الأرض, الشمس, النار, الهواء , وبالمفاهيم المجردة: حسن الضيافة, الشرف, الإخلاص لعادات الأسلاف, الإخلاص للقسم وهكذا كما كانت هناك آلهة نصيرة لكل حرفة.

إن تقديس واحترام الأقارب المتوفين والطقوس الجنائزية أمور هامة جدا بالنسبة للميوت. كانوا يضعون جسد المتوفى بشكل ملتوي في حفرة ويضعون معه الأدوات التي قد يحتاجها في العالم الآخر بالإضافة إلى الهدايا الجنائزية المقدمة من أقارب المتوفى وأهالي قريته كالأوعية والأسلحة واللباس وأدوات الزينة. فوق القبر يضعون تلة من الرمل كورغان.

و تقام حول القبر الطقوس الجنائزية وتمتد من عدة أسابيع حتى عدة أشهر حسب أهمية الشخص المتوفى .حيث كان يشكل الميوت حلقات دائرية حول القبر وينشدون الأغاني الجنائزية المترافقة

مع بكاء وضجة كبرى لطرد الأرواح الشريرة, ولهذه الغاية كانوا يقدون كل الحيوانات المفترسة حول القبر .

الآلهة الرئيسي لدى الميوت كانت آلهة الشمس, النار, الضوء, الدفء. كانوا يعتبرون هذه الأمور الأربعة متساوية بأهميتها و أنها مصدر الحياة على الأرض و يعبدونها .

وكانوا كشعوب حضارة شمال القفقاس يدهنون جسد المتوفى بدهان أحمر (قهرة) الذي يرمز إلى النار.

عاش الميوت في الجبال على تخوم القفقاس أسسوا حياة حضارية اشتغلوا بشكل خاص بتربية الماشية وصيد الأسماك الذي استخدموا فيه شبكات الصيد الكبيرة والخطافات.

ثانيا: السارامات

في الألف الأول قبل الميلاد تسلل اتحاد قبائل رحل يتكلمون اللغة الإيرانية من الشواطئ الشمالية لبحر قزوين إلى سهول الكوبان, هذه القبائل كانت تدعى السارامات. وكانت الصدامات الداخلية فيما بينها مستمرة من أجل السلطة على هذا الاتحاد, مما أدى إلى تقسيم السارامات إلى مجموعات متخاصمة متعادية. من أشهر هذه المجموعات: أورس – سيراك – ألان – راكسولان – يازيغ. حدث الاستيطان الأكبر للسارامات في هذه المنطقة في القرن الرابع الميلادي, و حسب شهادة المؤرخ (سترابون): إن الأوروس يقطنون على طول مجرى نهر تانايس, و السيراك على مجرى نهر أخارديا (الكوبان) الذي ينبع من جبال القوقاز و يصب في بحر الميوتيد (أزوف). ويؤكد سترابون أن الأوروس كانوا يمتلكون مساحات شاسعة و يسيطرون على القسم الأكبر من بحر قزوين.

تفوق السارامات على الشعوب الكثيرة التي كانت تحت سيطرتهم عدة و عتادا بأسلحتهم وبتفوقهم بالقتال. كانوا فرسانا مهرة و إضافة إلى الأسلحة التقليدية كالقوس و النشاب كانوا يمتلكون الحراب و السيوف الطويلة و الدروع الثقيلة.

إن وجود جيران محاربين خطرين كالسارامات أدى إلى تكاتف الميوت, والى ظهور مجموعة قوانين و عادات تشمل كافة الأمور الحياتية و المعيشية, كما ظهرت طبقة المحاربين و قادتهم. إن السيوف و التروس و الرماح التي كان يصنعها حرفيو الميوت كانت أكثر صلابة من تلك التي يصنعها السارامات, ومدى نبالهم أكثر بعدة مرات من مدى نبال السارامات الرحل. كانوا يمتلكون كذلك الدبلوماسية, فكل قادم إليهم بقصد السلم كان يقابل بالطعام و الهدايا السخية و كامل التشريفات الممكنة, وأي زائر كان يعادل وحتى يضاهاى مواطنيهم و يؤمن له المأوى المناسب.

أما من كان يقصدهم عدوا, فكان يلقي مقاومة شرسة حتى لو كان هذا العدو يفوقهم عددا وعتادا ولم يستطع الميوت مقاومته مباشرة, كانوا يقومون بذلك لاحقا.

الثأر عندهم ينطلق من مبدأ الدم بالدم, الموت يقابله الموت, والعاهة بإحداث عاهة في العدو, وكذلك الأسر بالأسر.

كان الثأر الأشد ضراوة يتمثل بالثأر ممن يتجرأ على تدنيس النصب المقدسة للأجداد وقيورهم وكل ما يتعلق بهم. عقاب ذلك هو الموت ثم يقطع رأس الجثة و تُحرق. وفي حال وفاة الميوت قبل أن ينتقم, فعلى أقاربه القيام بذلك, اعتقادا منهم أن الميوت لا يمكنه الدخول إلى مملكة الأموات طالما أن عدوه حي يرزق, وكان هذا واجبا على كل أقاربه دون استثناء, حيث أن دخول المتوفى إلى عالم الأموات كان الشرط الأساسي ضمن طقوس الدفن.

ثالثا: العلاقات المتبادلة بين الميوت و السارامات

كان للدبلوماسية الحربية الميوتية نتائج محددة, في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد حُجزَ الميوت من قبل السارامات الرُحل, و نسبيا كانت هناك علاقات ودية بين الأريال والسيراك. وعلى مدى ثلاثة قرون حصل تبادل ثقافي بين الميوت والسارامات, إضافة إلى الزيجات المتبادلة التي يفسرها التعايش السلمي بين هذه القبائل لفترة طويلة, كذلك عدم التوافق المستمر بين السارامات الرحل أنفسهم هو الذي أفاد الميوت جدا.

في الأعوام التالية تأثر الميوت كثيرا بالسارامات, وفي النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد كانت المعدات والأسلحة و أدوات الزينة الساراماتية تستخدم بشكل واضح من قبل الميوت, كما تغيرت طقوسهم الجنائزية, ولكن عقيدة الميوت ظلت كما كانت رغم أنها أخذت الكثير من العبادة الساراماتية دون أن تحل محلها أو تعارضها, حيث كان الميوت يطبقونها كمعلومات إضافية جاءتهم من أناس قدموا من البعيد. وتدرجيا اندمج الكثير من السيراك مع الميوت منتقلين إلى حضارتهم ومتعايشين معهم.

و أدى تعايش أعداد كثيرة من السيراك مع الميوت إلى تغير طباع الميوت وتفكك علاقاتهم القبلية وتعمقت التمايزات الحياتية.

ومع ازدياد خطر تدخل الألابيين أخذ الميوت مع السارامات المندمجين معهم بالانتقال من القرى إلى المدن المحصنة وذلك في المنطقة الواقعة على الضفاف اليسرى لنهر الكوبان.

رابعاً: السيد

يشكل السيد إحدى أكبر قبائل الميوت الذين قطنوا شبه جزيرة تومانسك وشواطئ البحر الأسود الشمالية الشرقية منذ بداية الألفية الأولى قبل الميلاد. ومع بداية القرن الخامس قبل الميلاد أنشأ السيد دولتهم (سنديك) التي حكمتها سلالة ملكية سيندية، وكانت عاصمتها مدينة سينديك (مدينة أبابا الحالية)، وقد سماها اليونانيون القدماء بميناء سينديك. وكأغلب الميوت مارس السيد الفلاحة وتربية المواشي وصيد الأسماك، وكان نظام الرق هو السائد فيها.

وفي العام 480 قبل الميلاد توحدت المستعمرات اليونانية المتوزعة على شواطئ مضيق كيرجينسك تحت لواء دولة واحدة، سُميت بمملكة البوسبور وأصبحت عاصمتها بانيتكاب. نشطت التجارة بين السيد ومدن البوسبور وانتشر الباعة اليونانيون في أسواق وشوارع السيد وكانوا يتاجرون بالخبز والحبوب والخضر والحليب ويشتررون العبيد بالمقابل. وكما في المدن اليونانية، فقد انتشرت المدرجات أعلى بيوت السيد وكانت تقام فيها العروض المسرحية والمصارعات الرومانية القديمة.

قام اليونانيون بتصدير الملح والخمر والأقمشة إلى سينديكا، واقتبس السيد الكثير من عادات اليونانيين ونمط لباسهم وأسلحتهم وطرق البناء لديهم وتعلموا منهم فن التصوير والنحت. بنفس الوقت تولدت لدى حكام البوسبور فكرة احتلال السينديك وتحويلها إلى مستعمرة يونانية، لكن كل المكائد ومحاولات الرشوة لم توصلهم للنتيجة المطلوبة. وفي عام 479 قبل الميلاد لجأ البوسبور إلى الاعتداء المباشر على سينديك، وحسب شهادة المعاصرين وصل إلى مرفأ السيد أسطول حربي جبار في فجر أحد الأيام، وتأهب سكان السيد استعداداً للمعركة على مشارف المدينة، وأسرع سكان القرى المحيطة باللجوء إلى المدينة مغلقين بواباتها ورائهم بإحكام. لعب الجواسيس اليونانيين المتخفين في المدينة بالزني السيندي دورهم المتفق عليه مسبقاً مع جنود الفرقة الخاصة اليونانية، وتحركوا نحو البوابات الشرقية، انقضوا على حراسها وقتلوه، وتوغل اليونانيون داخل المدينة المنتصف النهار واحتلوها بشكل كامل بعد تكبيدهم خسائر فادحة. حاولت لاحقاً الفصائل السيندية الضخمة المعززة بغيرها من الميوت تحرير مدينة سينديكا من اليونانيين وجرت معارك كثيرة أدت إلى تدمير المدينة، وشيد اليونانيون مستعمرتهم مكانها وسموها غورغيا.

مع سقوط سينديكا أخذ الميوت بالتراس مع قبائل الزيوخ الميوتية القاطنة على ضفاف البحر الأسود شرق السينديين. كان الزيوخ ينادونهم باليونانيين، ولكن في المؤلفات البوسبورية كانت ترد كلمة (أدزاها)، وأغلب الظن أنها تطابق الكلمة الأديغية (أدزاخ) أي الجيش أو القوات المسلحة، ومن الممكن أن تكون هي الكلمة التي تحولت مع الزمن إلى أديغة. في رواية أخرى، تسمية أديغة مرتبطة بانتشار عبادة الشمس، حيث إن لها لفظاً مشابهاً جداً إلى الكلمة الأديغية القديمة (أ – ديغة) – شعب الشمس.

في المصادر الايطالية واليونانية تسمية الزيخ كانت تطلق على الأديغة حتى القرن الخامس عشر. يقول المؤلف الايطالي انثريانو الذي كتب عن الأديغة مقالات كثيرة: بالايطالية واليونانية واللاتينية يسمونهم زيخ, أما الأتراك والتتار فيطلقون عليهم شراكسة, وهم يسمون أنفسهم أديغة.

استمرت الحروب الدامية بين الميوت و اليونانيين لعدة سنوات حتى عام 438 قبل الميلاد, وكان الميوت يهجمون باستمرار على مدن البوسبور بدعم من الزيخ. في عام 438 قبل الميلاد تولى سبارتوكوس ذو الأصول الميوتية ومؤسس سلالة سبارتاكيد الملكية حكم البوسبور, ومع وصوله للسلطة تتوقف الحروب بين الزيخ و اليونانيين, ولكن تكتل الميوت مع الزيخ سيستمر لسنوات لاحقة.

توطدت العلاقات التجارية بين البوسبور والميوت, حيث كان الميوت المورد الأساسي للخبز لمدن مملكة البوسبور ومدن يونانية أخرى بما فيها أثينا. حصل الميوت على جملة من المكاسب المادية والروحية من الثقافة اليونانية القديمة, وتحت تأثير اليونانيين انتشرت بين الميوت مهنة الخزف وصناعة المجوهرات والدروع الحربية, وبنفس الوقت اقتبس البوسبوريون من الميوت أنواع كثيرة من الأسلحة وتكتيك المعارك وتفصيل الملابس الملائمة للظروف المحلية.

خامسا: الزيخ

في القرن الثاني رغب ملك الزيخ ستاخيمفاك أن يرسخ مواقف الزيخ من القبائل المحيطة مدعيا نفسه تابعا للإمبراطورية الرومانية. وكغيرهم من حكام دول أخرى أخذ ملوك الزيخ باقتناء الحريم, حيث كان يصل عددهم للمئات ويتم جلبهن من بلدان مختلفة.

مع مرور الوقت أخذ الزيخ يضمون تحت لوائهم أعدادا كبيرة من قبائل الميوت, مشكلين اتحادا حربيا كان العمود الفقري ضد الغزاة. وكما باقي الميوت عمل الزيخ بتربية المواشي والفلاحة وصيد الأسماك, كما انتشرت لديهم زراعة الكروم.

تمركز القسم الأكبر من السكان في المدن الكبرى المسورة بمتاريس من كافة جوانبها, كما استمر بناء بيوت جديدة خارج الأسوار وتحاط بعد ذلك بأسوار دفاعية. أما في القرى الصغيرة فقد كانت المنازل تتوضع بشكل دائري ويبنى حولها حائطا دفاعيا. تطورت الملاحة البحرية عند الزيخ, في البداية كانت تصنع المراكب البدائية – كالزوارق الصغيرة ثم استفادوا من الخبرات الكبيرة لدى البوسبوريين في مجال الملاحة البحرية. كان الزيخ يزینون محاكمهم بتجسيدات لآلهة البحر خاتخا, الذي يحمل بيده صولجان ثلاثي الرأس وله ذنب سمكة بدلا من الأرجل.

كانت مراكب الزيخ تتحرك على شكل مجموعات مؤلفة من عدة مراكب على طول الشواطئ الشمالية الغربية للبحر الأسود, مستخدمين استراتيجيات حربية متنوعة تمكنهم من الإيقاع بأية سفينة غريبة, حيث كانت تحيط بها عدة سفن بشكل مفاجئ وتقترب منها من جميع الجهات. لم ينحصر تأثير اليونان القديمة بزراعة الكروم والملاحة البحرية والخزف فقط, فقد انتشر نظام الرق في مناطق الزيخ, الذين كانوا يحصلون عليهم عن طريق القرصنة وبييعونهم في أسواق مدن البوسبور.

في القرن الأول قبل الميلاد كان الزيخ يعتمدون على مساندة مملكة البونتسيك, وكثرة الغزوات على الجيران أدت إلى كثرة الذهب والمجوهرات الثمينة لدى الزيخ, كان الذهب وفيرا لدرجة أنه كان أرخص من البرونز والفولاذ وغيرها من المعادن الصلبة التي كانت تستخدم لصناعة الأدوات الحربية والعمل.

www.kavkaznews.net